مكانته وأثره

تتلمذ عليه فى مصر جمهرة من أعلام التفكير المصرى ، فأشربوا آراءه الاجتماعية التى كان يذيعها عليهم ، وظهر هذا الأثر جليا فى بعض مؤلفاتهم . فقد درس عليه وتأثره الحافظ بن حجر العسقلانى المحدث والمؤرخ (٨٥٢ هـ) ، وتتلمذ له وأعجب به المقريزى (٨٤٥ هـ) واعتنق مذهبه الاجتماعى ، ورفع مقدمته مكانا عليا ، وترسمه فى كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) . ويتحدث عن المقدمة فيقول (لم يعمل مثلها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هى زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتنبىء عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم[1] ، وألطف من الماء سرى به النسيم) . وتأثره فى نظرته إلى مصر والمصريين كما سيجىء .

وتأثره السخاوى أيضاً فى عدة فصول من كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) .

ونحا نحوه القلقشندى (٨٢١ هـ) ، ونقل عنه فصولا فى كتابه (صبح الأعشى) .

وقد كانت المقدمة وما زالت مدد الذين يكتبون فى الاجتماع وفى تاريخ العلوم ، فقد استعان بها كثيراً حاجى خليفة التركى فى كتابه (كشف الظنون) ، وخير الدين باشا التونسى فى مقدمة تاريخه ، وجودت باشا التركى فى تاريخه

---

(١) المواعظ والاعتبار ١ / ٤٢ — ٤٥

وأبو الطيب صديق حسن خان الهندى ملك باهوبال فى كتابه أبجد العلوم ، وقد نقل عن ابن خلدون كثيراً ، والعلامة طاش زاده فى كتابه مفتاح السعادة ، والقاضى عبد النبى بن عبد الرسول الهندى فى كتابه دستور العلماء أو جامع العلوم .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر عنى الغربيون بدراسة النظريات الاجتماعية لابن خلدون ، ووجدوا أنه قد سبق إلى كثير من النظريات ، وعالجها قبل أن يعالجها علماء الغرب بقرون ، نعم ، فقد طرق نظريات رددها بعده مكيافلى ، وفيكو ، ومونتسكيو ، وآدم سميث ، وأوجست كنت [1] . وكان المعتقد أن البحث الغربى هو الذى تهدَّى إلى فلسفة التاريخ ، ومبادىء الاجتماع وأصول الاقتصاد ، فإذا بابن خلدون يسبقه بعصور ، ويعالج فى مقدمته كثيراً من مناحى هذه الموضوعات بقوة وبراعة .

لذلك يرى كثير من الغربيين والشرقيين تشابها قويا أحيانا بين آراء ابن خلدون وآراء مونتسكيو كما سنرى فى البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وبرون تشابها قويا بين بعض آرائه وآراء جستاف لوبون .

أما مكانته العلمية العالمية فماذا عسى أن نقول فيها أكثر من أنه مبتكر

---

(١) ابن خلدون . محمد عبد الله عنان ص ١٤٦ مكيافلى : مؤرخ وسياسى إيطالى (١٤٦٩ — ١٥٢٧) . فيكو : مؤرخ وفيلسوف إيطالى (١٦٦٨ — ١٧٤٤) مونتسكيو : مشرع وفيلسوف اجتماعى فرنسى (١٦٦٩ — ١٧٥٥) آدم سميث : اقتصادى انكليزى (١٧٢٣ — ١٧٩٠) . كونت : فيلسوف فرنسى وهو واضع أصول الفلسفة الوضعية (١٧٩٨ — ١٨٥٧)

فلسفة التاريخ ، وواضع علم الاجتماع ، والسّباق إلى كثير من الآراء الحديثة التي يظن الكثير أنها من ابتداع الغرب ؟

وقد شاد بذكره الغربيون وأعجبوا بعبقريته . يقول العالم الاجتماعي جُمْبِلُوفتش : «إن ابن خلدون عرف تأثير البيئة والتشبه بالوسط قبل أن يعرفه دارون بخمسة قرون ، وسبق مكيافلي في سياسته التي رسمها للأمير . ويقول أيضاً (لقد أردنا أن ندلل على أنه جاء قبل أوجوست كونت ، بل قبل (فيكو) الذي أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوروبي مسلم تق فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، أو أتى في هذا الموضوع بآراء عميقة ، وما كتبه هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع »[1] ويوافقه في هذا الرأي العلامة الاجتماعي الإيطالي (فريرو) والكاتب الاجتماعي الروسي (ليفين) والأستاذ الأمريكي (ناتانيل)[2] .

ويرى (دي بوير) الهولندي أن ابن خلدون فيلسوف في صف ابن سينا وابن رشد والغزالي وابن الطفيل . ويختم بحثه عن ابن خلدون بقوله (لقد أمّل ابن خلدون فيمن يخلفه ، فيتم بحثه من المسلمين ، ولكن أمله لم يتحقق ، وبقي بغير خلف كما كان بغير سلف)[3] .

والحق إن ابن خلدون نثر بين أيدينا من ثمرات أفكاره الرطبَ الجنى اليانع ، في التاريخ وفلسفته ، وعلم الاجتماع ، وتاريخ العلوم ، والتربية ، لذلك حظي بتقدير عظيم في العصر الحديث ، فترجمت مقدمته إلى كثير من اللغات ، وكتب عنه كثير من العلماء في ألمانيا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا

---

(١) ابن خلدون ١٥٢ عنان (٢) ابن خلدون ١٥٢ (٣) ابن خلدون ١٥٠

وأمريكا ، وتنبه له المصريون فطبعوا كتابه وقرءوه وفهموه ، وكتب بعضهم دراسات قيمة عن نظرياته .

لكنهم جميعاً خصوا بعنايتهم آراءه فى الاجتماع أو أصول التاريخ والاقتصاد ، وتخطوا آراءه المتصلة بالتربية ، سواء فى ذلك التربية بمعناها الخاص ، والتربية بمعناها العام (أى عواملها غير المقصودة كالبيئة الطبيعية والاجتماعية) ، وعلم النفس . كما أغفلوا مكانته الأدبيـــة وخصائصه الأسلوبية .

وستكون دراسة هذه النواحى دراسة تفصيلية ، ونظمها فى نهج واحد من موضوعات هذا الكتاب .